

صفات الرحمن في سورة الفرقان

أحمد عبد الغني زيد علي

ورقة مشروع

قسم / التفسير

جامعة المدينة العالمية

ماليزيا

(١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م)

شكر وتقدير

إلى كل من ساندني وشجعني في طريق طلب العلم .

إلى كل معلم تعب واجتهد ليوصل إلينا رسالة العلم .

إلى من حثني ووقف بجواري إلى أن وصلت إلى هنا .

إلى دكاترة ومدرسي جامعتي ، إلى هؤلاء وغيرهم كثيرون

أتقدم بعظيم شكري وجزيل امتناني ، فلهم مني كل المحبة
والتقدير .

إهداء

أهدي بحثي هذا إلى :
والدي العزيز - رحمه الله - ووالدتي الغالية حفظها الله ،
زوجتي رفيقة دربي ،
أولادي قرّة عيني ،
وإلى كل من أحب وأعز في هذه الحياة .

أ	شكر وتقدير
ب	إهداء
ج	فهرس الموضوعات .
١	مقدمة .
	الباب الأول / في رحاب سورة الفرقان .
٣	الفصل الأول / التعريف بالسورة وسبب تسميتها .
٢	- التعريف بالسورة .
٣	- سبب التسمية .
٤-٣	- ما اشتملت عليه السورة .
٥	الفصل الثاني / أهمية السورة .
	الباب الثاني / آيات صفات عباد الرحمن .
٧	الفصل الأول / الدرس الأخلاقي في آيات (صفات عباد الرحمن) .
٨	الفصل الثاني / مناسبة الآيات لما قبلها
	الباب الثالث / صفات عباد الرحمن .
١٠	الفصل الأول / الصفة الأولى .
١٢	الصفة الثانية .
١٤	الصفة الثالثة .
١٦	الصفة الرابعة .
١٨	الفصل الثاني / الصفة الخامسة .
٢٢	الصفة السادسة .
٢٣	الصفة السابعة .
٢٥	الصفة الثامنة .
٣١	الخاتمة .
٣٢	المراجع والفهارس .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وبعد :

أنزل الله عز وجل كتابه الكريم ، وحواه بكل ماينفع الإنسان في جميع حياته ومختلف توجهاته ، فهو السراج المضيء ، والقمر المنير ، فلا تكاد أية من كتاب الله ألا ولها عظيم الأثر في قلب المسلم .

وجاءت سورة الفرقان بمعانيها وآياتها العظيمة – كما هو القران دائما – لتوضح للمسلم طرق عديدة، وسبل كثيرة .

فأوضحت وذكرت بعقيدة العبد مع ربه ، ونبهت وحذرت من أعمال الكفار وأقوالهم . ثم ختمت بصفات عباد الرحمن (وهو محور بحثنا) حيث جمعت هذه الصفات ما بين العبد وربيه ، وما بينه وبين المخلوقين ، وكافأهم في الدار الأخرى بهذا الجزاء العظيم، بالإضافة إلى الغرف، نعيم لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى : { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } قال – أظنّ - سهل رحمه الله : شهدت من رسول الله عليه الصلاة والسلام مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ثم قال صلى الله عليه وسلم في آخر حديثه قال: " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ثم قرأ هذه الآية : { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (٣) فكان لزاما على كل مسلم أن يتدبر هذه الصفات ، ويتحلى بها فهي تحمل خير الدنيا والآخرة .

(١) سورة السجدة (١٧)

(٢) سورة السجدة (١٦)

الباب الأول :في رحاب سورة الفرقان

الفصل الأول / التعريف بالسورة وسبب التسمية .

- التعريف بسورة الفرقان .
- سبب التسمية .
- ما اشتملت عليه السورة .

الفصل الثاني / أهمية السورة .

الفصل الأول/ التعريف بالسورة وسبب التسمية .

• التعريف بسورة الفرقان :

- مكية ماعدا الآيات ٦٨،٦٩،٧٠ فمدنية.
- من المثاني. - آياتها ٧٧.
- ترتيبها الخامسة والعشرون.
- نزلت بعد سورة " يس. " (١)
- بدأت بأسلوب الثناء " تبارك "، السورة بها سجدة في الآية ٦٠.
- الجزء " ١٩ "، الحزب " ٣٦،٣٧ "، الربع " ١،٢ ".

• سبب التسمية:

الفرقان هو اسم من أسماء القرآن :
سُميت بهذا الاسم لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم وكان النعمة الكبرى على الإنسانية لأنه النور الساطع والضياء المبين، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والنور والظلام، والكفر والإيمان. (٢)

• ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كسائر السور المكية اهتمت بأصول العقيدة من التوحيد والنبوة وأحوال القيامة.
فبدأت بإثبات الوجدانية لله عزّ وجلّ، وصدق القرآن، وصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ووقوع البعث والجزاء يوم القيامة لا محالة، وفندت أضداد هذه العقائد، ونعت على المشركين عبادة الأصنام والأوثان

(١) تفسير المراغي

(٢) التفسير الميسر

ونسبة الولد لله عزّ وجلّ، وتكذيبهم بالبعث والقيامة، وهددتهم بما سيلقون من ألوان العذاب والنكال في نار جهنم، ومفاجأتهم بما في جنان الخلد من أصناف النعيم المقيم.

ثم أبانت شؤم مصير بعض المشركين كعقبة بن أبي معيط الذي عرف الحق ثم ارتدّ عنه، فسمّاه القرآن بالظالم " وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا " (١) متأثرا بصديقه الذي سمي بالشيطان وهو أبي بن خلف.

ثم ذكرت قصص بعض الأنبياء السابقين وتكذيب أقوامهم لهم، وما حلّ بهم من نكال ودمار وهلاك بسبب تكذيبهم رسل الله، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرّس، وقوم لوط، وأمثالهم من الكافرين الطغاة. وأوردت السورة أدلة على قدرة الله ووحدانيته، مما في الكون البديع من عجائب صنعه، وما في الأرض من آثار خلقه في الإنسان، والبحر، وخلق السموات والأرض في ستة أيام، وإنزال الأمطار وإرسال الرياح مبشرات بالمطر، وجعل البروج في السماء، وتعاقب الليل والنهار. ثم ختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن المخلصين الموقنين، وما يتحلون به من أخلاق سامية وآداب رضية، تجعلهم يستحقون بها إكرام الله تعالى وثوابه الجزيل في جنات النعيم. إنزال القرآن ووحدانية الله تعالى . (٢)

(١) سورة الفرقان آية ٢٧

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج / وهبة الزحيلي

الفصل الثاني / أهمية السورة:

السورة تسير بسياق متميز فتبدأ بآيات فيها ما قاله المكذبون (وقالوا) ثمتأتي آيات تهدئة الرسول وتعقيب على ما قالوا، ثم تأتي آيات تتحدث عن عاقبة التكذيب ويستمر هذا السياق في معظم آيات السورة الكريمة.

كما يحسن أن تكون سورة الفرقان خاصة، مما يبدأ بتعلمه من القرآن الكريم، حفظاً ومدارسةً وتدبراً؛ لأنها باب عظيم من أبواب القرآن، ومدخل فسيح من مداخله الكبرى.

مَنْ تَخَلَّقَ بحقائقها الإيمانية، وتحقق بمنازلها الربانية؛ نال من كنوزه الوفيرة فضلاً عظيماً! إذ فيها من الأسرار العَجَبُ العَجَابُ، عيونا تتدفق بالأنوار واللطائف والبركات، من بدايتها إلى نهايتها؛ بما يكفي السالكَ ويُمَكِّنُهُ - بعد تخلقه بأخلاقها وتحققه بمنازلها - أن يلج إلى مسالك القرآن جميعها! ويكون من (عباد الرحمن) حقيقةً.

يكفيك من ذلك إشارة أن اسمها هو أحد أهم أسماء القرآن! ولا سورة سميت بمثل اسمها، مع أن أسماء القرآن الواردة بنصه كثير.

ثم إن موقعها منفتح على أواسط القرآن، ولذلك فهي تدخل بصاحبها إلى ساحاته وباحاته؛ وتفضي به إلى معارجه ومقاصده.

ومن هنا كانت آياتها كلها تدور على محاور القرآن الكبرى، بدءاً بأصول الإيمان وحقيقة التوحيد والإخلاص، فدلائل النبوة، وحقائق البعث ومشاهد القيامة، والوعد والوعيد، وموازين العدل، وعبر القصص، ثم حُكْمَ التشريع وجماله. ولذلك كانت خاتمتها تحمل من ثمار الإيمان ومدارجه ما يرتقي بالعبد إلى منازل الأولياء والصدّيقين! (١)

(١) كتاب الفطرية، فريد الأنصاري

الباب الثاني / آيات صفات عباد الرحمن

الفصل الأول:

الدرس الأخلاقي في آيات (صفات عباد الرحمن)

الفصل الثاني :

مناسبة آيات (صفات عباد الرحمن) لما قبلها

الفصل الأول:

الدرس الأخلاقي في آيات (صفات الرحمن) :

لو نظرنا لوجدنا أن نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بلغه للمسلمين وطبق ما جاء به من تعاليم هو الذي حول تلك الأمة الجاهلية التي كانت تمارس من العادات والخلاق السيئة الكثير حولها إلى خير أمة أخرجت للناس.

بيّنت هذه الآيات الكريمة صفات عباد الرحمن وأخلاقهم، وتعاملهم مع ربهم، وتعاملهم مع الناس، وبيّنت عقيدتهم وتصرفهم في أموالهم، وتلقيهم لآيات الله حين يُدكِّرون بها .

انظر كيف وصف الله هيأتهم في مشيتهم، فقال : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا } يمدحهم الله بهذه الهيئة النابعة عن التواضع لله ربّ العالمين، وذلك التواضع من الآداب العالية في جميع الملل .

فهذا درس أخلاقيّ يربينا الله عليه سبحانه وتعالى، ويبين لنا صفات أوليائه وأصفيائه، يعلمنا أخلاقهم، فكما نتلقى منهم الدين والعقيدة كذلك نتلقى منهم الأخلاق، ونسير على منوالهم ونترسم خطاهم .

ونحن لا نقرأ القرآن للبركة، بل نقرأ القرآن لنعمل به ونقرأ السنة لنعمل بها ونتعلم العلم لنعمل .

فالإسلام دين تطبيق وعمل وليس دين نظريات : { وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ . } (١)

وكم من الآيات يحثّ فيها الله تعالى على العمل الجادّ .

(١)سورة العصر

الفصل الثاني / مناسبة آيات (صفات عباد الرحمن)

لما قبلها:

قال المراغي :

بعد أن وصف الكافرين بالإعراض عن عبادته، والنفور من طاعته، والسجود له عز اسمه - ذكر هنا - أوصاف خلص عباده المؤمنين، وبين ما لهم من فاضل الصفات، وكامل الأخلاق، التي لأجلها استحقوا جزيل الثواب من ربهم، وأكرم لأجلها مثواهم وقد عدّ من ذلك تسع صفات مما تشرئب إليها أعناق العاملين، وتتطلع إليها نفوس الصالحين، الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال، وأتوا به من جليل الأعمال. (١)

قال القرطبي في تفسيره :

لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضا وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم، كما قال { سبحان الذي أسرى بعبده } (٢).

فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق اسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله { أولئك كالأنعام بل هم أضل } (٣)، يعني في عدم الاعتبار. (٤)

(١) تفسير المراغي

(٢) الإسراء ١

(٣) الأعراف ١٧٩

(٤) تفسير القرطبي .

الباب الثالث / صفات عباد الرحمن

الفصل الأول : الصفة الأولى .

الصفة الثانية .

الصفة الثالثة .

الصفة الرابعة .

الفصل الثاني : الصفة الخامسة .

الصفة السادسة .

الصفة السابعة .

الصفة الثامنة .

الفصل الأول / من صفات عباد الرحمن

هذه الآيات الكريمت يبرز فيها عباد الرحمن بصفاتهم المميزة ، ومقوماتهم الخاصة ، هؤلاء العباد هم الذين يعرفون الرحمن ، ويستحقون أن ينسبوا إليه ، وأن يكونوا عباده ، هم الذين يبئس الشيطان من أن يغويهم أو يجد منفذاً للسيطرة عليهم فقد أقسم كما قال جل وعلا " : قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ " (١) ، وقال تعالى " : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ " (٢)

الصفة الأولى :

قال تعالى " وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا "

هذه صفات عباد الله المؤمنين (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) أي : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كما قال : " وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا " . (٣)

فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ، "وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنما ينحط من صَبَبٍ ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رؤيئاً ، فقال : ما بالك؟ أنت مريض؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشي بقوة .

(١) ص ٨٢-٨٣

(٢) سورة الحجر / ٤٢

(٣) الإسراء : ٣٧

وإنما المراد بالهَوْنُ هاهنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا" (١)

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَرٍ، عن يحيى بن المختار، عن الحسن البصري في قوله: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

قال: إن المؤمنين قوم ذُلل، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن.

أما والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاضم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تَقَطَّعَ نَفْسُهُ عَلَى الدنيا حسرات، ومن لم ير الله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قلَّ علمه وحضر عذابه. (٢)

وانظر إلى لقمان كيف أوصى ولده بهذا الأدب، قال تعالى: "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا" ، والله عز وجل قال: "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا" (٣) فهذه إهانة من الله تبارك وتعالى للمرححين المستكبرين؛ يقول له: من أنت حتى تتناول على الناس؟! فلن تبلغ الجبال طولاً؛ يعني هذه إهانة له حتى يتواضع .

فهؤلاء العباد؛ عباد الرحمن يمشون هونا متواضعين لله رب العالمين، يمشون بسكينة ووقار غير مُتَّصَعٍ وإنما تواضعاً لله وخفضاً للجناح للمؤمنين وغيرهم.

(١) صحيح مسلم .

(٢) تفسير ابن كثير .

(٣) الإسراء: ٣٧

الصفة الثانية :

قال تعالى " وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا "
 ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَيْلَهُمْ خَيْرٌ لَّيْلٍ فَقَالَ تَعَالَى " وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا " أَيُّ
 فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى " كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِاللَّسْحَارِ
 هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ " (١) وَقَوْلُهُ " تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ " (٢) . وَقَالَ تَعَالَى " أَمَّنْ
 هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ " (٣)

الآية الأولى في التعامل مع الله ومع عباده وهذه في التعامل مع ربّ العالمين؛ يحبون الله ويعظمونه ويرجون رحمته ويخشون عذابه سبحانه وتعالى.

فيعبدون الله تبارك وتعالى؛ يقومون الليل، لكن ليس الليل كله كما علمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ فإن شريعتنا دين الوسط ليس فيها رهبانية وليس فيها الجفاء وإنما هو دين الوسط، ولهذا لما تشدّد بعض الصحابة وقال بعضهم : أقوم ولا أنام وقال بعضهم : أصوم ولا أفطر وقال بعضهم : لا أتزوج النساء غضب رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال : (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) (٤).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الليل ولا يزيد على إحدى عشر ركعة أو ثلاث عشرة ركعة وقد ينقص عليه الصلاة والسلام .

(١)سورة الذاريات (آية١٧)

(٢)سورة السجدة (١٥)

(٣) سورة الزمر (٩)

(٤) أخرجه البخاري برقم (٤٧٧٦) ومسلم (١٤٠١)

وكان عبد الله بن عمرو ممن يصوم النهار ويقوم الليل فبلغ ذلك رسول الله فأنكر عليه صلى الله عليه وسلم؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم أنبأ أنك تقوم الليل وتصوم النهار) ؟ فقلت : نعم فقال : (فإنك إذا فعلت ذلك هجمت العين ونفخت النفس صم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صوم الدهر أو كصوم الدهر) . قلت : إني أجد بي - قال مسعر يعني قوة - قال : (فصم صوم داود عليه السلام وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى) (١) .

وعلمه أن يصلي صلاة داود؛ ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه) (٢) .

فأرشد عبد الله بن عمرو إلى أن يقوم قيام داود ويصوم صيامه؛ لأنه لا أفضل من قيامه ولا من صيامه، وكان لا يفر إذا لاقى؛ كان مجاهداً وكان من صفاته الشجاعة؛ كان يجمع بين العبادة وبين الشجاعة عليه الصلاة والسلام .

فنقوم الليل ولكن على النهج الذي شرعه رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ لأن الدين لا يشادّه أحد إلا غلبه .

دخل النبي صلى الله عليه وسلم فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال (ما هذا الحبل ؟) . قالوا : هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا ، حُلُوهُ لِيَصِلَ أَحَدَكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ) (٣) .

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٣٧) واللفظ له، ومسلم (١١٥٩) .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٢٣٨) ومسلم (١١٥٩) .

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٠٩٩) ومسلم (٧٨٤) .

الصفة الثالثة :

قال تعالى " وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا " وفي هذا مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم للخلق واجتهادهم في عبادة الخالق وحده لا شريك له، يخافون عذابه ويبتهلون إليه في صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كما قال في شأنهم: " وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ " .(١)

غراما : أي مُلَازمًا

ولهذا قال الحسن في قوله " إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا " كُلُّ شَيْءٍ يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ وَيَزُولُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِغَرَامٍ وَإِنَّمَا الْغَرَامُ اللَّازِمُ مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَكَذَا قَالَ سُلَيْمَانُ النَّيْمِيُّ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ " إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا " يَعْنِي مَا نَعْمُوا فِي الدُّنْيَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَأَلَ الْكُفَّارَ عَنِ النُّعْمَةِ فَلَمْ يَرُدُّوْهَا إِلَيْهِ فَأَغْرَمَهُمْ فَأَدْخَلَهُمُ النَّارَ " إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقْرَأً وَمُقَامًا " أَي يَسُ الْبَيْتَ الْمَنْزِلَ مَنْظَرًا وَيَسُ الْمَقِيلَ مَقَامًا .(٢)

فهؤلاء يعملون الأعمال الصالحات ويجتنبون القبائح والسيئات وعلى رأسها الكفر ولا يكتفون بذلك بل يضرعون إلى الله أن ينجيهم من النار؛ لأن المرء لا يضمن لنفسه الجنة، فيلجأ إلى الله تبارك وتعالى أن يقيه عذاب النار.

ولهذا علمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام في كل صلاة نصليها فريضة أو نافلة أن نستعيز بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة

(١) تفسير سورة الفرقان للمراغي .

(٢) تفسير ابن كثير .

المسيح الدجال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع؛ من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر المسيح الدجال) (١) .

فلا يَغْتَرُونَ بِإِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَعِبَادَتِهِمْ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَيَقُولُونَ : نحن قمنا بهذه الأشياء فلنا الجنة ! كما يتصور بعض السفهاء وأهل البدع والضلال !!

كان الصحابة- رضوان الله عليهم -؛ قال ابن أبي مليكة : " أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه " (٢) . وقال الحسن : " ما خافه إلا مؤمن ولا آمنه إلا منافق " (٢) . فيجب على المؤمن أن يكون خائفًا وجلًا؛ يخاف أن ينتكس، يخاف أن يزيغ قلبه، يخاف أن يقع في النفاق؛ النفاق العملي، والنفاق العملي إذا تمادى الإنسان فيه قد يقع في النفاق الإعتقادي -والعياذ بالله - (٣) .

ثم بين أن سبب سوء الهم ذلك لوجهين:

(١) " إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا " أي إن عذابها كان هلاكًا دائمًا، وخسرانا ملازمًا.

(٢) " إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا " أي إنها بئس المنزل مستقرا وبئس المقيل مقاما: أي إنهم يقولون ذلك عن علم، وإذا فهم أعرف بعضهم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلى النجح.

قال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم، وقال محمد بن كعب: طالبهم الله تعالى بثمن النعيم في الدنيا فلم يأتوا به، فأخذ ثمنه بإدخالهم النار.

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٨٨) وأحمد (٢٣٧/٢) .

(٢) ذكرهما البخاري تعليقا في صحيحه.

(٣) شرح سورة الفرقان، ربيع المدخلي .

الصفة الرابعة :

قال تعالى " وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا "

اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية، فقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله -عز وجل- فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام.

وقال ابن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر.

وقال عون بن عبد الله: الإسراف أن تنفق مال غيرك، قال ابن عطية: وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيالاً ونحو هذا، وألا يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه الخصال وخير الأمور أوسطها.

يعني هذا في النفقات في سبيل الله، بعض الناس ينفق الأموال الطائلة في وجوه الخير، ومع ذلك يترك أولاده يتكفون الناس، أو يشق على نفسه بالمسألة فعلى قدر صبره وجلده وتحمله للعمل، ولا يعرض نفسه للإهانة وسؤال الناس ولا يضيع من يمون، فإذا اجتمعت له هذه الأمور فلينفق ما شاء، أما إذا امتهن نفسه، بذل نفسه، وأدلتها بسؤال الناس أو ترك من خلفه أو من كلفه الله القيام بأعبائهم وحقوقهم مثل هذا عليه أن يسدد ويقارب، ولا ينفق شياً يضر به وبهم. ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم- أبا بكر الصديق أن يتصدق

بجميع ماله؛ لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك، ونعم ما قال إبراهيم النخعي: هو الذي لا يجوع ولا يعرى، ولا ينفق نفقة يقول الناس: قد أسرف، وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسون الثياب لجمال ولا يأكلون الطعام للذة، وقال يزيد أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم- كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع، ويقويهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكثفهم من الحر والبرد.

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه ابنته فاطمة: ما نفقتك؟ فقال له عمر: الحسنه بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية، وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله. (١)

"وهذا من رعاية المال، المال من الضرورات التي يأمر الإسلام بالمحافظة عليها وهو كما يقال: عصب الحياة، فلا تُضيع الأموال في سبيل الشيطان، سبل الشيطان كثيرة، لا تنفق في سبل الشيطان ولا تبخل في أن تبذل المال في سبيل الله .

والمرء مأجور في كل ما ينفقه، حتى اللقمة يضعها في في امرأته، هذا المال الذي تنفقه على أهلك احتسبه لا بد أن تكون عندك نية، فإذا احتسبته تريد به وجه الله والقيام بالواجب الذي شرعه الله فهو في ميزان حسناتك، وإذا أنفقت لاهياً سقطت عنك المسئولية وتفوت على نفسك الأجر، استحضر دائماً إرادة الله تبارك وتعالى في كل تصرفاتك حتى فيما تنفق على أهلك حتى اللقمة تضعها في في امرأتك فإنك تؤجر عليها". (٢)

(١) تفسير الطبري، عبد الكريم الخضير .

(٢) صفات عباد الرحمن، ربيع المدخلي .

الفصل الثاني /

الصفة الخامسة :

قال تعالى "والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا" يعني لا يتخذون مع الله أندادا يحبونهم كحب الله ويستغيثون بهم ويلجأون إليهم عند الشدائد، براءة من الشرك كله؛ من كل أصناف الشرك لا يدعونه، هذا مقام ثناء فليس عندهم شيء من أنواع الشرك بالله لا صغير ولا كبير، هذه هي العقيدة هذا هو الدين الذي يجب الحفاظ عليه .

• جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله:
هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر . ولا يصح حمل هذه [الآية] على غير توبة ؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتوب منه .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف ؛ أن ابن جريج أخبرهم : قال يعلى : إن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس [رضي الله عنهما] ؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثرُوا ، وزنوا فأكثرُوا . فأتوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة . فنزل : " والذين

لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون " ،

روى البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود قال: « سألت رسول الله
:أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت ثم أي؟ قال: أن
تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك »
فأنزل الله تصديق ذلك: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) الآية. (١)

وقد نفى عنهم هذه القبائح مع أنه وصفهم بالصفات السالفة من حسن
معاملتهم للناس ومزيد خوفهم من الله وإحياء الليل يقتضى نفيها عنهم،
تعريضاً بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم، وتنبئها إلى الفرق بين
سيرة المؤمنين وسيرة المشركين، فكأنه قيل: وعباد الرحمن الذين لا
يدعون مع الله إلهاً آخر وأنتم تدعون، ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموءودة،
ولا يزنون وأنتم تزنون.

روى مسلم عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثرُوا، وزنوا
فأكثرُوا، فأتوا محمداً فقالوا، إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن
لما عملنا كفارة، فنزلت: "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا" (٢)

ثم توعد سبحانه من يفعل مثل هذه الأفعال بشديد العقاب فقال:

"وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا"

أي ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة، يلق في الآخرة جزاء
إثمه وذنبه الذي ارتكبه، بل سيضاعف له ربه العذاب يوم القيامة ويجعله
خالداً أبداً في النار مع المهانة والاحتقار، فيجتمع له العذاب الجسمي
والعذاب الروحي.

(١) البخاري ومسلم .

(٢) مسلم

وبعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار في التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين فيفوزون بجنت النعيم فقال :

"إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" أي لكن من رجع عن هذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات فألئك يمحو الله سوابق معاصيه بالتوبة ويثبت له لواحق طاعته.

قال الحسن: قال قوم هذا التبديل في الآخرة وليس كذلك.

وقال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة.

وروى أبو ذر عن النبي " إن السيئات تبدل بحسنات "

وروى معاذ أنه قال: " أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن "

والخلاصة - إنه يعفو عن عقابه، ويتفضل بثوابه، والله واسع المغفرة لعباده، فيثيب من أناب إليه بجزيل الثواب، ويبعد عنه شديد العقاب.

"وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا" أي ومن تاب عن المعاصي التي فعلها، وندم على ما فرط منه، وزكى نفسه بصالح الأعمال، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحا، مقبولة لديه، ماحية للعقاب، محصلة لجزيل الثواب، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل، ويوفقه للخير، ويبعده عن الضير.

وفي هذا تعميم لقبول التوبة من جميع المعاصي بعد أن ذكر قبولها من أمهاتها. (١)

(١) تفسير البغوي .

الصفة السادسة :

قال تعالى "وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا"

أي والذين لا يؤدون الشهادات الكاذبة، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، ويكرمون أنفسهم عن سماع اللغو وما لا خير فيه كاللغو في القرآن وشم الرسول والخوض فيما لا ينبغي، وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه، (يطليه بمادة سوداء) ويحلق رأسه ويطوف به السوق. (١)

هؤلاء والله هم الكرام؛ لا يشهدون الزور؛ فُسرّ شهود الزور بمعنى حضوره، وفُسرّ بعبادة الأوثان والأصنام، فُسرّ بالكفر والبغي والمعاصي وغيرها، وفُسرّ بعدم حضور الغناء، وفُسرّ بعدم شهود مجالس السوء؛ مثل شرب الخمر وغيره من المعاصي والقمار وما شاكل ذلك، ولعل الآية تتناول هذه الأشياء كلها، فُسرّ أيضاً بشهادة الزور وهي الكذب على الغير، وبهتته بما ليس فيه، فهم ليسوا من هذا النمط، ولا من هذا النوع الذين يقذفون الناس بما ليس فيهم؛ يعني شهادة الزور أن تقول في غيرك الباطل، هذه شهادة الزور والرسول عليه الصلاة والسلام اعتبر شهادة الزور من أكبر الكبائر، فالمعاصي فيها كبائر، وكبائر الكبائر ومنها شهادة الزور؛ قد تؤدي شهادة الزور إلى سفك الدماء، إلى هتك الأعراض، لها مضار وعواقب وخيمة جداً.

لهذا اعتبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر، {فَاجْتَنِبُوا

الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} (٢)

سواء شهادة الزور أو قول الزور بالكفر والشرك أو البغي والعدوان والغيبة والنميمة وما شاكل ذلك.

(١) المصدر السابق .

(٢)(الحج: ٣٠).

قرن سبحانه وتعالى الزور بالنهاي عن عبادة الأوثان لشدة خطره، وفي حديث أبي بكره رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟! قلنا: بلى يا رسول الله قال :

(الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور) (١)

لخطورتها وفسرت الآية بهذه الأمور، وفسرت بما فسرت به من الأقوال السابقة الذكر، فلا هذا، ولا هذا؛ لأنهم عباد الرحمن ولأنهم شرفاء، كرماء، نبلاء فلا يتعاطون شيئاً من ألوان الزور أبداً؛ لأنهم عباد الرحمن وصفوا بهذه الصفات النبيلة التي أثنى الله تبارك وتعالى عليهم بها .

الصفة السابعة :

قال تعالى " وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعَعْمِيَانًا "

الكافر والمغرق في البدع والهوى يسمع آيات الله تتلى عليه فيصر مستكبراً كأن لم يسمعها!! الكافر كافر إلا من أراد الله له الهداية، والمبتدع قد يقع في هذا البلاء فتتلو عليه الآيات والأحاديث وكلام العلماء الراسخين فيعانده ويكابره، أصم، أبكم كأنه لم يسمع وكأنه لم يبصر سلبت منه هذه الحواس؛ حواس الإدراك، فلا يفقه، ولا يقبل النصيحة والموعظة! بخلاف عباد الرحمن الذين وصفهم الله في آيات كثيرة ومنها قوله تبارك وتعالى :

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.} (٢)

(١) رواه البخاري برقم (٥٦٣١) ومسلم برقم (٨٧) .

(٢) الأنفال: ٢-٤

فهذه أيضا من صفات عباد الرحمن؛ المؤمنون، الكاملوا الإيمان؛ إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانا، لا يخرونها عليها صمًا وعميانا كما يفعله الكفار الأجلاف وأهل البدع الأجلاف أيضا؛ كثير من أهل البدع نُقرأ عليهم الآيات في أبواب التوحيد وأبواب الأحكام والحلال والحرام التي يقعون في مخالفتها، وآيات الوعيد فلا يرفعون بذلك رأسا ولا يستفيدون، ولو كان أهل البدع ممن إذا دُكر بآيات الله يتذكروا ويتعظون ويزداد إيماننا لما بقيت هذه البدع ولما بقي عليها أهلها قرونا متطولة.

فالمعتزلي مستمر على اعتزاله، والرافضي مستمر على رفضه، والخارجي مستمر على خارجيته، والصوفي الغالي مستمر في غلوه، وقد يشتركون في كثير من الضلالات، والمرجيء على إرجائه وكل قبوري على قبوريته.

نُقرأ عليهم الآيات وتتلّى عليهم الأحاديث وتبين لهم أقوال العلماء فيستمرون على بدعهم، ما السر؟!!

إنهم يمرون عليها صمًا وعميانا، ليسوا من نوعية عباد الرحمن الذين إذا دُكروا يتذكرون، وإذا وُعطوا يتعظون، وإذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون، ويعملون سائر الأعمال الصالحة والتي ذكرت في كثير من آيات القرآن الكريم ومنها هذه الآيات التي نتحدث عنها الآن من سورة الفرقان. (١)

وفي هذا تعريف بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ولم يتحولوا عما كانوا عليه، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم، وجهلهم وضلالهم، فكانهم صمّ لا يسمعون، وعمى لا يبصرون. (٢)

(١) تفسير صفات الرحمن ربيع المخلي .

(٢) تفسير البغوي .

الصفة الثامنة :

قال تعالى " :

"والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما" الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

قال ابن عباس :يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة.

وقال عكرمة :لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصري -وسئل عن هذه الآية - فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد ، أو أخا ، أو حميما مطيعا لله عز وجل .

وقال ابن جريج في قوله "هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين" قال : يعبدونك ويحسنون عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الإمام أحمد :حدثنا يعمر بن بشر حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفيير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما ، فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم!

لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجب ، ما قال إلا خيرا! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه ، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟

والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبرهم الله على مناخرهم في جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد

بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها نبيا من الأنبياء في فترة من جاهلية ، ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان .
فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافرا ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تفر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وإنما التي قال الله تعالى " والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين " . (وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه) .

وقوله تعالى " واجعلنا للمتقين إماما "

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا في الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين [ودعاة] إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنتفع ، وذلك أكثر ثوابا ، وأحسن مآبا؛ ولهذا ورد في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية . " (١)

قال تعالى " أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما "

يقول تعالى ذكره : هؤلاء الذين وصفت صفتهم من عبادي ، وذلك من ابتداء قوله " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هون " إلى قوله : " والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا " الآية (يجزون) يقول : يثابون على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا .

(الغرفة) وهي منزلة من منازل الجنة رفيعة .

(بما صبروا) يقول : بصبرهم على هذه الأفعال ، ومقاساة شدتها .

(١) تفسير ابن كثير

وقوله " ويلقون فيها تحية وسلاما "

اختلفت القراء في قراءته ، فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة ويلقون مضمومة الياء ، مشددة القاف ، بمعنى : وتلقاهم الملائكة فيها بالتحية . وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة " : ويلقون " بفتح الياء ، وتخفيف القاف .

والصواب من القول في ذلك أن يقال : إنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .

قال تعالى " خالدین فیها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما یعبأ بکم ربی لولا دعاؤکم فقد کذبتم فسوف یكون لزاما "

يقول تعالى ذكره : أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، خالدین فی الغرفة ، یعنی أنهم ماكنون فیها ، لاثنون إلى غیر أمد ، حسنت تلك الغرفة قرارا لهم ومقاما . يقول : وإقامة .

وقوله " قل ما یعبأ بکم ربی "

'يقول جل ثناؤه لنبيه : قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلت إليهم : أي شيء يعدكم ، وأي شيء يصنع بكم ربی ؟

- حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال :

قال ابن زيد في قوله " قل ما یعبأ بکم ربی " أي ما يصنع لولا دعاؤکم .

- حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، جميعا عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (: قل ما یعبأ بکم ربی) قال : یعبأ : یفعل . وقوله " لولا دعاؤکم " يقول : لولا عبادة من يعبد منكم ، وطاعة من

یطیعه منكم (١)

(١) تفسير الطبري .

حدثني علي ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس ، قوله (: ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم) يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين .

وقوله تعالى " فقد كذبتهم فسوف يكون لزاما "

يقول تعالى ذكره لمشركي قريش قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد كذبتهم أيها القوم رسولكم الذي أرسل إليكم وخالفتم أمر ربكم الذي أمر بالتمسك به لو تمسكتم به ، كان يعبا بكم ربي ، فسوف يكون تكذيبكم رسول ربكم ، وخلافكم أمر بارتئكم ، عذابا لكم ملازما ، قتلا بالسيوف وهلاكاً لكم مفنيا يلحق بعضكم بعضاً .

يعني باللزام : الكبير الذي يتبع بعضه بعضاً ، وباللقيف : المتساقط الحجاره المتهدم ، ففعل الله ذلك بهم ، وصدقهم وعده ، وقتلهم يوم بدر بأيدي أوليائه ، وألحق بعضهم ببعض ، فكان ذلك العذاب اللزام .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن عامر ، عن ابن مسعود ، قال : فسوف يلقون لزاماً يوم بدر .

حدثني الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قوله " فسوف يكون لزاماً " قال أبي بن كعب : هو القتل يوم بدر . (١)

يقول الدكتور د.فاضل السامرائي

قوله تعالى " قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا

ما يعبا بكم ربي أي لا يعتد بكم لولا أنكم تتضرعون إليه وتدعونه فهو لايعبا بكم ولا يعتد بكم (ما) هنا تحتل أن تكون استفهامية وتحتل أن تكون نافية .

(١)تفسير الطبري

بمعنى لا إذا كانت نافية وإذا كانت استفهامية ما يعبأ بكم والاستفهام هنا ليس غرضه الاستفهام وإنما تهويل الأمر وأنهم لولا الدعاء فليسوا بشيء وليسوا بتلك المنزلة.

حتى قسم قال الدعاء معناه العبادة (الدعاء مخ العبادة) "وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" (١)
فالدعاء هو التضرع وهو أشهر شيء فيها وهو مخ العبادة "وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" لا يعتد بنا ربنا لولا تضرعنا إليه والله تعالى غضب وعاقب أناس لأنهم لم يتضرعوا وأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون "فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ" التضرع الدعاء بتدلل.

فربنا سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يعبدوه ويتضرعوا إليه ويدعوه، ولولا دعاؤنا ربنا لا يعتد بنا. (فقد كذبتم) وإن كان الخطاب عام لكن هنا للكفرة (فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا) يكون العقاب لازماً عليكم لو لم تفعلوا هذا سوف يكون العذاب ثابتاً وحقاً عليكم.

إن المتدبر لآيات صفات الرحمن لا يلبث إلا أن يقول لهم :

هنيئاً بما أعده الله لهم من جزاء أوفى وأوفر إن مساكنهم يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين في الغرفات إنهم في أعلى عليين من جنة النعيم هذه الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

(١)سورة غافر(٦٠)

(٢)سورة البقرة(١٨٦)

(٣)سورة الأنعام(٤٢)

أعدّها الله للمتقين من عباد الرحمن وذلك جزاء على صبرهم (وما يلقاها

إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (١)

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (٢)

لقد صبر عباد الرحمن على طاعة الله وعلى اجتناب ما نهى الله عنه مما تشتهيهِ الأنفس.

فعباد الرحمن هم في هذه الحياة الدنيا في معترك وهم في جهاد ومجاهدة إذ المغريات والفتن كثيرة ولكنهم صمدوا أمامها وثبتوا ولم يتزحزحوا قيد أنملة والصفات الأنفة الذكر التي عدّها الله تبارك وتعالى وأثبتها لعباد الرحمن صفات جمعت فأوعت بحيث لم تترك جانبا من جوانب التصرف الإنساني إلا وانت عليه في ميادين العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، هنيئا لعباد الرحمن فهم في الغرفات ينتعمون تلقى عليهم التحية والتكريم في سلام وأمان وطمأنينة.

إن عباد الرحمن خالدون في الجنة التي هي نعم المستقر والمقام فالله تبارك وتعالى غني عن عباده لا تضره معاصيهم وكفرهم ولا تنفعه طاعاتهم وإيمانهم، إنما هي أعمالهم يحصيها لهم لن يستطيع الكافرون بكفرهم أن يلحقوا به ضررا، انه سبحانه وتعالى لا يعبا بكفر من يكفر وان تكذيب المكذبين لن يعود إلا عليهم بالضررة والوبال والعذاب الشديد هذا العذاب الذي هو عقاب استحقوه بما قدمت أيديهم في الحياة الدنيا .

(١) سورة فصلت (٣٥) .

(٢) سورة الزمر (١٠) .

الخاتمة :

بهذه الآيات البينات الجامعة لصفات عباد الرحمن ختم الله تبارك وتعالى سورة الفرقان.

وهي آيات جديرة بالوقوف عندها وتدبر معانيها وتمتعها وتقريبها من المؤمنين لعلمهم يراعون من معينها ويهتدون بما فيها ولعلمهم أيضا يبذلون قصارى جهدهم في محاولة تجسيما في حيز الواقع، لأن الجزاء الذي أعده الله للمتصفين بصفات عباد الرحمن جزاء عظيم والأجر الذي ينتظر عباد الرحمن اجر كبير فقد ختمت هذه الآيات بقوله جل من قائل :

(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما)

لقد جمع الله تبارك وتعالى في عرضه وتعداده لصفات عباد الرحمن بين ما هو من صميم العقيدة والإيمان وما هو من قبيل العبادات والشعائر وما هو من قبيل السلوك والمعاملات وسائر التصرفات أقوالا وأفعالا.

إنها وصفة من العليم الخبير ومن الحكيم الحليم لعباده المؤمنين كي يأخذوا بها أن أرادوا شفاء أدوائهم وأمراضهم وان أرادوا صلاح أحوالهم وأعمالهم.

إن صفات عباد الرحمن كما وردت في خاتمة سورة الفرقان جديرة مثل كل القرآن- أن يجعلها المؤمن نصب عينيه ويعتبر نفسه معنيا بها قبل غيره بهذا الخطاب الإلهي الموجه إلى كل مؤمن لا يستثنى من ذلك احد بحيث يمكنه التهرب أو التملص منه.

المراجع والفهارس :

القران الكريم .

صحيح البخاري .

صحيح مسلم .

أيسر التفاسير للجزائري

تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي:

التفسير الميسر

التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج / وهبة الزحيلي

تفسير القرطبي كتاب الفطرية ، فريد الأنصاري

تفسير صفات الرحمن ربيع المخلي

تفسير القرآن العظيم / ابن كثير

تيسير الكريم الرحمن / السعدي

-التحرير والتنوير / ابن عاشور

تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن / السعدي

-أضواء البيان / الشنقيطي

صفات عباد الرحمن ، سفر الحوالي .

تفسير الجلالين